

## الشروط الموضوعية للترجمة مقارنة بين عصر المأمون وعصرنا الحالي عرض ونقد

د. نشأت الحمارنة

كلية الطب، جامعة دمشق (سوريا)

من الممكن اليوم أن يُكتبَ تاريخ العلم العربي من جديد. ومن ضمن ما ينبغي إعادة كتابته : تاريخ عصر الترجمة (1).  
وسنلخص هنا ما استجدّ من حقائق تتعلق بهذا العصر، وسنأتي على أهمّ هذه الحقائق ذكرًا — وذلك لاتساع الموضوع — وسنقتصرُ الأمثلة التي نسوقها على حقّ تاريخ الطبّ.

### البحث في تاريخ عصر الترجمة : جهود علمية حديثة :

لاحظ عددٌ من الباحثين بعضَ الحقائق فيما يتعلق بالتأريخ لعصر الترجمة (2)، وسنذكر هنا مثالاً واحداً منها توخياً للاختصار، فالقول بأن ترجمة العلوم بدأت في العصر العباسي، صار بحاجة إلى إعادة نظر :

---

(1) يقوم جورج صليبيا بمحاولة كتابة تاريخ هذا العصر، أنظر كتابه، الفكر العلمي العربي، في قائمة المراجع.

(2) يصحّح فؤاد سزكين هذه التسمية (عصر الترجمة) ويستعمل مصطلح (مرحلة الأخذ والتمثل)، وتعبير سزكين أدق، ذلك أن (الأخذ) بدأ نتيجة لاختلاط المسلمين بسكان البلاد الأصليين. فالطب — مثالاً — وبخاصة الطب العملي عرفه العرب نتيجة اختلاطهم بأهل العراق والشام قبل عصر الترجمة، بل قبل الإسلام. أنظر : سزكين، محاضرات...، ص 24 كذلك نشأت الحمارنة، آراء...، 1 : 34 - 35، 97 - 99 .

— أشار بعض الباحثين إلى دور خالد بن يزيد بن معاوية في الاطلاع على علوم الاسكندرانيين<sup>(1)</sup>.

— ونوه آخرون بالدور الذي لعبته ترجمة ماسرجويه البصري ككناش أهرن القس الإسكندراني، في العصر المرواني<sup>(2)</sup>.

— وقال الأستاذ سزكين : إنَّ عصر الترجمة كان حافلاً بالمساهمات الأصيلة والإبداع<sup>(3)</sup>. ولم يكن دور العرب فيه سلبياً بل فاعلاً.

— وأخيراً وليس آخراً. لفت جورج صليبا الأنظار إلى الدور الذي قامت به عملية تعريب الدواوين أيام عبد الملك بن مروان في الاطلاع على علوم عديدة منها الرياضيات والفلك.

وتعطي بعض هذه الملاحظات فكرة عن مدى الإهمال - وربما التجاهل - الذي عانت منه عملية التأريخ للعصر الأموي.

وحتى بيت الحكمة، فقد اكتفيَ في الماضي بالتركيز على دوره مركزاً للترجمة، لكن دوره - مؤسسة علمية - لم يُنْتَبَهْ إليه. فغابت عن الأذهان أهميته في عملية البحث العلمي وفي النهضة العقلية عموماً.

### محاولة لفهم تاريخ عصر الترجمة :

وفي الحقيقة فإننا لا يمكن أن نعطيَ هذا الموضوع حقّه، إلّا إذا نظرنا إليه نظرة شاملة، وهذه النظرة تقتضي من الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار

---

(1) يذكر سزكين أن خالد بن يزيد بن معاوية اهتم أيضاً بعلم أحكام النجوم ولم تقتصر اهتماماته على الكيمياء كما هو شائع. أنظر : العلوم، 1، ... : 6.

(2) ترجم (ماسرجويه البصري) كناش (أهرن القس) من السريانية إلى العربية وكان قد ترجمه من اليونانية إلى السريانية جوسبوس Gosios ويقول ابن أبي أصيبعة (1 : 109) : أنَّ ماسرجويه أضاف إلى كناش أهرن مقاليتين من تأليفه ولعل هذا أقدم تأليف طبع في الإسلام؛ ونجد مقتبسات عديدة من هاتين المقاليتين في الحاوي منسوبة إلى (ماسرجويه) أو (اليهودي). ((أهرن من أهل القرن السادس الميلادي)) أنظر : سزكين، تاريخ، ... : 3، 166، 206 - 207.

(5) يرى سزكين أن مساهمات المسلمين الأصيلة بدأت في (مرحلة الأخذ والتمثل) وذلك في حقول عديدة :

— العلوم الدينية : (أصول الفقه مثلاً) — العلوم اللغوية : (العروض مثلاً).

— المصطلحات : (مصطلحات الفلسفة وعلم الكلام مثلاً).

— الرياضيات : (الجبر مثلاً) — الجغرافيا : (قياس محيط الأرض مثلاً).

— والكيمياء : (النظرية والعملية).

ومع ذلك فإن المرحلة تأخذ اسمها من طابعها الغالب وهو الأخذ.

أنظر : سزكين، محاضرات، ...، ص 24 - 25.

العلاقات الموضوعية التي تربط تطور العلم بالتطور الذي يتبدى في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

وهذا يضع إصبعنا على الجرح، موضع الضعف في العقلية التي حاولت أن تؤرخ لعصر الترجمة غير آخذة بعين الاعتبار :

— ما جرى في الشام والعراق — خصوصاً — إبان الفتح الإسلامي.

— وما هي الروح التي سادت بين المسلمين الفاتحين والمسيحيين السريان سكان البلاد الأصليين الذين كان عرب الشمال يشكلون نسبة عالية منهم من حيث عددهم ونشاطهم وقدرتهم الإنتاجية والاجتماعية.

وهذا كله يستدعي إعادة النظر في التأريخ لزمن الفتح ونتائجه الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

فقد تغيرت — نتيجةً للفتح الإسلامي — مظاهر الحياة تغيراً كبيراً نحو الأحسن. ونشير هنا إلى بعض مظاهر هذا التغير.

— فقد تحرّر سكان البلاد الأصليون (السريان المسيحيون) (ومعهم العرب المسيحيون) الذين كانوا يسكنون الشام والعراق من الحكم الأجنبي.

— وتحرر السكان أيضاً من نظام الضرائب الجائر الذي كانوا يرزحون تحت وطأته في مرحلة ما قبل الإسلام في المناطق التي حكمها الفرس والبيزنطيون.

— وتحرر هؤلاء السكان أيضاً من الاضطهاد المذهبي الذي مارسه كنيسة بيزنطة على الكنائس الشرقية في أنطاكية والقدس — والإسكندرية أيضاً —

— وانتهت مرحلة الحروب الفارسية البيزنطية التي جعلت الحياة جحيماً في الشام والعراق : دمّرت هذه الحرب المدن ومنعت التجارة وخرّبت الاقتصاد الزراعي والحرفي.

لقد ساد في هذه المنطقة المهمة من العالم القديم — بفعل مجيء الإسلام — زمن من السلم والأمن، فانطلق الناس إلى العمل بحرية وأمان : التجار والزراع والحرفيون وغيرهم.

ولا نودّ أن نستفيض كثيراً في الحديث عن التغيرات الإيجابية التي جاءت نتيجة للفتح الإسلامي، فحديثها يطول.

لكن المهم أن نلاحظ أن البلاد تحرّرت قومياً ودينياً من الوجود الأجنبي — البيزنطي والفارسي — وأن الفرصة جاءت لكي يعبر سكان البلاد الأصليون عن رغباتهم ونزعاتهم، وأن يعبروا عن ذاتهم.

فالإسلام أعطاهم الحرية الدينية الكاملة، واحترم المذاهب المسيحية كلّها وعامل المواطنين مسلمين ومسيحيين ويهودا معاملة تتسم بالسماحة والاحترام والكرامة والحرية والمساواة.

لذلك فإننا نستطيع أن نفهم كيف شارك المسيحيون في الفتوحات (1) وكيف لعبوا دورهم كاملاً غير منقوص في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

### الطب في عصر الترجمة :

أما من الناحية العلمية — ونفصّر حديثنا هنا على الطب — : فقد كان الطب في الشام ومصر والعراق قد وصل إلى مستوى عالٍ، ذلك أنه وريث الطب الشرقي الموعّل في القدم منذ أيام الحضارات الأولى في مصر وبلاد ما بين النهرين، وكان هذا الطب الشرقي قد اغتنى بمجيء الطب الإغريقي النظري مع الإسكندر المقدوني، ثم وصل إلى قمة تطوره حينما صارت الإسكندرية المركز الطبي الأول والأكثر تطوراً وإنتاجية في العالم القديم، وحينما ترجم السريان التراث الإسكندراني من اليونانية إلى السريانية.

---

(1) أهل البلاد الأصليون من السريان والعرب هم الذين بنوا الأسطول البحري الذي استعمله معاوية لفتح قبرص.

لقد جاء الفاتحون المسلمون إلى الشام والعراق ومصر واختلطوا بالسكان الأقباط والسريان والعرب الذين كانت مدنها تحفل بعدد كبير من الأطباء الذين كانوا قد تلقوا العلم القديم مكتوباً بالسريانية أو القبطية ومتداولاً بين الأسر الطبية تداولاً شفهياً أو بالاعتماد على الكناشات، هذا بالإضافة إلى أن عدداً من هؤلاء الأطباء تلقوا العلم في مدرسة جنديسابور الطبية ومشفاهها.

لقد تعلم الفاتحون المسلمون الطبّ العملي أولاً نتيجة اختلاطهم بالأطباء السريان وأدركوا أهمية التراث الطبي النظري، لذلك قرروا ترجمة هذا التراث بحثاً عن الأصل وحرصاً على الأخذ المباشر من المصدر.

لقد كانت عملية ترجمة العلوم الطبية نتيجة لمعرفة طبية عالية أكثر منها سبباً لنشوء هذه المعرفة (1).

أدرك الأطباء والعلماء ورجال الدولة هذه الحقيقة فقرروا ترجمة هذا التراث الإغريقي إلى العربية.

ولذلك ظهرت ترجمات عديدة قبل عصر المأمون وهذا شيء معروف في التاريخ العربي، لكن التركيز عليه ومعرفة قيمته، لم يكونا موضع اهتمام ولم ينالا التقدير الكافي من المؤرخين:

— فقد ذكر اليعقوبي عدداً من هذه الترجمات الطبية (2).

— وذكر حنين بن اسحق عدداً آخر من الترجمات القديمة، وعرض محتواها، وقیمها ونقدها (3).

---

(1) أنظر: نشأت الحمارنة، آراء...، 1 : 26 — 27، 97 — 99.

(2) أنظر: اليعقوبي، التاريخ، 1 : 95 — 143.

(3) في رسالته إلى علي بن يحيى المنجم (ما ترجم...) وقام حنين بدور بالغ الأهمية في تاريخ الطب إذ يُعرف بكتب جالينوس، ويذكر ترجماتها إلى السريانية وإلى العربية.

وتعدّ رسالة حنين هذه المرجع الرئيس لتراث جالينوس الطبي.

أنظر: بيغوليفسكايا، ثقافة السريان...، ص 219 — 243؛ وبيرعشترسر، رسالة حنين بن اسحق إلى علي بن يحيى المنجم (في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه، وبعض ما لم يترجم)، حققها بيرعشترسر، وترجمها إلى الألمانية.

وفي الحقيقة فإن الموضوع بطول ولكن ينبغي الإشارة إلى المسألتين  
التّاليتين :

- إن دراسة دور السريان نقلت للطلب من الإغريقية إلى السريانية  
والعربية لم تأخذ مداها الضروري<sup>(1)</sup>. وبخاصة قيمة النقل الشفهي  
للطب العملي، قبل نقل الطب النظري.

- إن مدرسة جنديسابور الطبية لم تأخذ بعد حقّها من الدراسة الجادة<sup>(2)</sup>،  
ذلك أنها قامت بأحد أهمّ الانجازات في تاريخ البشرية في مجال  
التعليم الطبي ذلك أنها ابتكرت - لأول مرة - ما نسمّيه اليوم  
بالملازمة السريرية، أي الدراسة العملية في المستشفى، على سرير  
المريض، برفقة الأستاذ وإشرافه.

بهذه الخطوة انتقل التعليم الطبي من عملية تشبه تعليم الحرفة أو المهنة  
المتوارثة في الأسرة الواحدة إلى عملية تعليمية حقيقية، تجري في المشفى،  
حيث يتعدد الأساتذة وحيث يرى الطالب عدداً كبيراً جداً من المرضى، إذا  
قورن بالعدد الذي يراه المتدرب عند والده، في نظام التعليم القديم الذي تقتصر  
فيه المسألة التعليمية على الصلة بين الأب وابنه.

### دور الترجمة السريان والعرب :

لم تكن ترجمة الطب في صدر الإسلام عملية صعبة :

- فالعلماء السريان الذين كانوا يتقنون الإغريقية ترجموا الطبّ من  
اليونانية (الإغريقية) إلى السريانية.

---

وقد أعاد عبد الرحمن بدوي نشرها بالعربية عام (1981)، في دراسات ونصوص... رسالة  
حنين : ص 149 - 179.

(1) أنظر : نشأت الحمارة، آراء... 1 : 118، 171 - 174، 207؛ وببغوليفسكايا، ثقافة  
السريان... 91 - 107.

وللاستزادة يمكن قراءة ما كتبه مطولاً في هذا الموضوع : يوسف حبي، المراكز السريانية...  
وشادية حافظ، السريان وتاريخ الطب... والأب قنواطي، المسيحية...

(2) أنظر : نشأت الحمارة، آراء... 1 : 2 - 25؛ دائرة المعارف الإسلامية 7 : 121.

والعلماء السريان الذين كانوا يعرفون العربية أو العلماء العرب الذين كانوا يتقنون السريانية ترجموا من السريانية إلى العربية.

وخير مثال على ذلك — شيخ الترجمة — حنين بن اسحق<sup>(1)</sup>، العربي الذي ينتمي إلى العباد، فبلغته الأم — العربية — وبمعرفته الممتازة للسريانية — لغة كنيسة النسطورية —، كان أقدر الترجمة. وحنين مثال على ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارة : فهو ممثل حقيقي للحضارة السريانية، التي قامت على أساسين : التراث الآرامي والديانة المسيحية، وكان من أبنائها وممثليها أفراد من كل الأعراق والأجناس والبلدان والمذاهب. لقد كانت الحضارة السريانية حضارة قائمة على أساس ثقافي في مجتمع متسامح يقبل الآخر ويحترمه.

وكان حنين كذلك ممثلاً حقيقياً للحضارة العربية الإسلامية التي ساوت كذلك بين كل الأعراق والمذاهب وقامت على أساس تقاليد الشرق القديم العريقة الغنية بالتسامح. وعلى أساس تعاليم الإسلام السامع محترمة كل الديانات والمذاهب ومساوية بين كل الأمم والشعوب<sup>(2)</sup>. لقد كان حنين سريانياً، كما كان عربياً. وبمثل حنين وآلاف من المثقفين الذين عاشوا في الشام والعراق في صدر الإسلام تتداخل الحضارتان السريانية والعربية.

— ولم تكن عملية الترجمة عملية صعبة لسبب آخر، فالطب النظري — الإغريقي — كان قد توقف عن التطور في المرحلة الهلنستية المتأخرة<sup>(3)</sup>.

لقد واجه الترجمة مهمة ترجمة علم مستقر بحقائقه ومفرداته ومصطلحاته.

ولما تمت عملية الترجمة، بدأ الطب بالتطور من جديد على يد العرب في المرحلة الإسلامية من التاريخ.

— وقد أقبل الترجمة على عملهم، بتشجيع من رأس الدولة ورجالها دونما خوف (من علوم الأقدمين)، ودونما إحساس بالنقص. فالعرب في ذلك الوقت كانوا سادة أنفسهم في العالم القديم.

(1) أنظر : نشأت الحمارة، تاريخ أطباء العيون العرب، 1 : 49 — 57.

(2) م.س، تاريخ أطباء العيون العرب، 1 : 19 — 20.

(3) سزكين، محاضرات ....، ص 38.

## الترجمة بين اليوم والأمس :

إذا تذكرنا هذه الحقائق يمكن لنا أن نتصور فداحة المهمة الملقاة على أكتاف ترجمة اليوم في حقل العلوم الطبية.

فالعلم الذي نترجمه اليوم يتطور، وسرعة هذا التطور سرعة مذهلة لم يعرفها تاريخ العقل البشري من قبل، وحقائق العلم تستدعي مترجماً من أهل الاختصاص قادراً على فهمها، ومتقناً لغة العلم التي يُترجمُ منها، وضليعاً بلغته العربية التي يُترجمُ إليها.

ثم إن الظروف النفسية للأمة، تشكل عائقاً آخر، فإحساس معظم أفراد الأمة بالنقص، وأحياناً بالعجز، وفي أقلِّ الاحتمالات : الإحساس بتفوق الآخر تجعل قرار الترجمة صعباً على الحكّام وعلى عدد كبير من العلماء، و في المقابل يجد البعض أن الاستغناء عن العربية والتشبّث بالعلم مكتوباً بلغة أجنبية هو الأجدى.

هذا بالإضافة إلى جهل كثير من رجال الدولة بكفاءة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب كل المعاني. وهذا ما يؤدي إلى التقاعس عن اتخاذ قرار الترجمة قراراً سياسياً أو أكاديمياً أو جامعياً.

ولا نريد أن ننشر قضايا صعبة، لا يتسع المجال لها هنا لكن لابدّ من الإشارة إليها إشارة عابرة:

إن بعض الفئات المتعلمة التي تتقن لغةً عربية حديثة تجد في الترجمة خطراً يوصل عامّة الناس إلى المناصب المقتصرة على أبناء هذه الفئات حالياً والمحتكرة من قبلهم، وهذا الخطر يهدد امتيازاتهم، لذلك فإنهم يتخذون من عملية الترجمة موقفاً سلبياً، ويقول بعضهم على عملية الترجمة برمتها، ويقول آخرون على اللغة العربية، إلى آخر ما شاهدنا من مهازل في العقود المنصرمة.

وقرار الترجمة قرار قد يكون بيد الأجنبي — الذي كان المستعمر أو المسيطر في الماضي — فبعد أن أدرك هذا الأجنبي خطر الترجمة التي جعلت

طلبة الطب العرب يقرؤون لغة واحدة، تُوحّد قدرتهم على التفكير وعلى التعبير — وبالتالي توحد بينهم — فإنه اتخذ قراراً بإيقاف عملية الترجمة في القصر العيني وفي مدرسة الطب البيروتية. لأن الأجنبي كان — ولا يزال — ضدّ وحدة الأمة العربية وهنا أيضاً يطول الحديث ويتشعب.

### حساسية البحث في الموضوع :

وفي الحقيقة فإن هذه المسائل الشائكة لا تقع في صلب موضوعنا، بل تمسّه من جوانب عديدة. وإن الإشارة إليها من بعيد دون الدخول في جزئياتها وتفاصيلها سببه — هنا — الاختصار والتقيّد بصلب الموضوع.

ولكن ينبغي أن نشير أيضاً إلى أن هذه المسألة قد تثير بعض الحساسية عند عدد من المسؤولين ومن الزملاء في أوساط العلم والطب والترجمة.

ومراعاة لهذا كلّ فإننا نقول إنّ جواً من رحابة الصدر والسماحة والقدرة على تحمّل الرأي الآخر، والمرونة في التعاطي مع القضايا الشائكة يجب أن يتوفر في المحافل التي تودّ أن تناقش هذه الأسئلة المصيرية، المصيرية بالنسبة إلى مستقبل الثقافة والمعرفة في بلادنا، وبخاصّة مستقبل العلم.

لكنها قبل كلّ شيء مصيرية بالنسبة إلى مستقبل الأمة ووحدتها.

### واقع المعرفة في الطبّ قبل عصر الترجمة

إذا كنا نتوقع أن العرب عرفوا قدرأ من الطب النظري إلى جانب الطب العملي قبل عصر الترجمة، فعلياً أن نبحت عن حالة المعرفة الطبية في الشام والعراق ومصر قبل الفتح الإسلامي.

مصادر المعلومات عن الطب في هذه الأقطار كثيرة، وهي تؤكد وجود مستوى رفيع من الممارسة الطبية (العملية). وبعض المعارف (النظرية).

فما هو اطلاع العرب على ذلك قبل عصر الترجمة، بل قبل الفتح ؟

ينبغي أن ندرس الشعر الجاهلي وتاريخ العرب قبل الإسلام بحثاً عن هذه المعرفة الطبية، بحثاً عن وجود أطباء، وعن العمل الذي قام به هؤلاء، وكذلك بحثاً عن أسماء الأمراض وأسماء الأدوية الخ....

هذه المهمة تستدعي جهوداً من مؤرخين ولغويين وأطباء وربما فلاسفة أيضاً.

من جانبنا .. نظرنا في كتاب العين (للخليل بن أحمد الفراهيدي)، وبينت المحاولة الأولى في البحث عن أسماء الأمراض أن هذه الدراسة قد تعطينا معلومات غزيرة، لم يفتن أحدٌ بعد إلى مدى أهميتها، وغني عن القول أننا اخترنا هذا المعجم لأنه ظهر قبل عصر الترجمة.

نجد في هذا المعجم عدداً كبيراً من أسماء الأمراض، فإذا قصرنا عرضنا هنا على حقل أمراض العين — توكيلاً للاختصار — فإننا نكتشف : — مثلاً :

الرمد (1)، الشخوص (2)، الخُراج (3)، الوَقَّة (4)، الشَّرَى (5)، الغَرَب (6)، الخ ...

ونجد أسماء أمراض عامّة لم تتضح دلالتها العلمية الدقيقة في حقل أمراض العين إلا في مرحلة متأخرة : السُّلاق (7)، السَّلْعَة (8)، الخ ...

كما نجد أسماء بعض الأعراض (وليس الأمراض) (9) : الرَّمَص (10)، السِّل (11)، الخ ...

- 
- 1) العين : (8 : 38) : ((الرَّمَدُ : وَجَعُ العين، وَعَيْنٌ رَمَدَاءُ، وَرَجُلٌ أَرَمَدَ وَرَمَدَ، وَقَدْ رَمَدَتْ عَيْنُهُ وَأَرَمَدَتْ)).
  - 2) العين : (4 : 165) : ((وَشَخَصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ : ارْتَفَعَ)).
  - 3) العين : (4 : 158) : ((وَالْخُرَاجُ : وَرَمٌ وَقَرَحٌ يَخْرُجُ مِنْ ذَاتِهِ)).
  - 4) العين : (5 : 198) : ((وَالْوَقَّةُ : دَاءٌ يَأْخُذُ فِي الْعَيْنِ وَغُرُوقُ الصُّغْغِ)).
  - 5) العين : (6 : 282) : ((وَالشَّرَى : دَاءٌ يَأْخُذُ فِي الرَّجْلِ، أَمْرٌ كَهَيْئَةِ الدَّرْهِمِ.. شَرَى الرَّجُلُ وَشَرَى شَرَى وَهُوَ شَرَى)).
  - 6) لعين : (4 : 410) : ((وَالْغَرَبُ : خُرَاجٌ يَخْرُجُ فِي الْعَيْنِ)).
  - 7) لعين : (5 : 77) : ((وَالسُّلَاقُ : يَثْرُ يَخْرُجُ عَلَى اللِّسَانِ)).
  - 8) العين : (1 : 335) : ((وَالسَّلْعَةُ يَخْفَفُ وَيَثْقُلُ : خُرَاجٌ، وَيَخْرُجُ كَهَيْئَةِ الْغَدَةِ فِي الْعُنُقِ أَوْ غَيْرِهِ، يَمُورُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ، تَرَاهُ يَدِيصُ دِيصَانًا إِذَا حَرَكْتَهُ)). [يديص : يثقل].
  - 9) العَرَضُ هو ما يتظاهر به المرض من تَغْيِيرٍ فِي الْحَالَةِ الطَّبِيعِيَّةِ. فيَحْسُ بِهِ الْمَرِيضُ، وَيَشْكُو مِنْهُ. وَالْعَرَضُ يَتَّظَاهَرُ فِي عِدَدٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ. وَلِكُلِّ مَرَضٍ عِدَدٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ.
  - 10) العين : (7 : 122) : ((الرَّمَصُ : غَمَصٌ أَبْيَضٌ تَلْفُظُهُ الْعَيْنُ فَتَوَجَّعَ لَهُ. وَعَيْنٌ رَمَصَاءُ وَقَدْ رَمَصَتْ رَمَصًا إِذَا لَزِمَهَا ذَلِكَ)). الرَّمَصُ عَرَضٌ لِأَكْثَرِ مِنْ مَرَضٍ : كَالرَّمَدِ وَالسَّبَلِ.
  - 11) العين : (7 : 192) : ((وَالسِّلُّ وَالسَّلَالُ : دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِنْسَانَ وَيَقْتُلُ، وَسَلَّ الرَّجُلُ وَأَسْلَهُ اللَّهُ إِسْلَالًا فَهُوَ مَسْلُولٌ)). السِّلُّ هُنَا عَرَضٌ بِمَعْنَى النُّحُولِ الشَّدِيدِ، لَكِنْ الْمَصْطَلَحُ فِي الطَّبِّ الْحَدِيثِ يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَاضِ تَحْدِيدًا. فَالسِّلُّ بِتَعْيِيرِ الْيَوْمِ مَرَضٌ، لَكِنَّهُ فِي التَّرَاثِ قَدْ يَكُونُ مَرَضًا وَقَدْ يَكُونُ عَرَضًا. وَسَلَّ الْعَيْنُ فِي التَّرَاثِ هُوَ ضَمُورُهَا.

وبطبيعة الحال فإننا لا نتوقع أن نجد في هذا الكتاب تعريفاً للمرض، ذلك أن هذه ليست مهمة المؤلف، لكننا نجد أحياناً وصفاً لأعراض المرض. وإن مجرد وجود هذه الأسماء في المعجم دليل على أن عامة الناس كانوا يعرفون معناها ويتعاملون معها تعامل العارف بها.

الفرق بين كتاب العين ومعجم متأخر (على سبيل المثال تاج العروس...) هو أن المعجمات المتأخرة استوعبت جهود الأطباء، ووضعت لكثير من أسماء الأمراض تعريفاً اعتمده الأطباء. وعلى سبيل المثال :

الْعَرَبُ : في (العين) — خُراج يَخْرُجُ في العين.

في (تاج العروس) <sup>(1)</sup> — عرق في مجرى الدمع ... يسقي ولا ينقطع. فتعريف المرض في (التاج) يبدو متطوراً ومتقدماً عليه في معجم (العين).

ونحن نعرف أن المعجمات العربية تدلنا على الفروق الطفيفة في دلالة بعض الكلمات التي تبدو لأول وهلة مترادفة. فالحول <sup>(2)</sup> والقَبَل <sup>(3)</sup> والخَزَرُ <sup>(4)</sup> أسماء تدل على حالات سريرية مختلفة لمرض واحد نسميه اليوم اصطلاحاً (الحول). لكن المعجمات اللغوية تحتوي على أسماء أخرى قد تدل على حالات معينة من حالات الحول : الشَّطَرُ <sup>(5)</sup>، الشَّرَزُ <sup>(6)</sup>، الشُّصُو <sup>(7)</sup>. وهذه الأسماء الثلاثة الأخيرة نجدها في كتاب العين.

- 
- (1) تاج العروس : (3 : 459).  
(2) العين : (3 : 299) : ((الْحَوْلُ : إقبالُ الحَدَقَةِ على الأنفِ حَوْلَتْ تَحَوَّلَ وإذا كان الحول يَحْدُثُ وَيَذْهَبُ قيل : احوَلْتُ عينه احوِلَلاً، وَاحوَلْتُ احوِلَلاً)). أنظر : لسان العرب، (11 : 191).  
(3) العين : (5 : 168) : ((والقَبَلُ : إقبالُ سوادِ العينِ على المحجرِ. ويقال بل إذا أَقْبَلَ سوادها على الأنفِ فهو أَقْبَلٌ، وإذا أَقْبَلَ على الصَّدْعَيْنِ فهو أَخْزَرُ)). أنظر لسان العرب، (11 : 541-542).  
(4) العين : (4 : 206) : ((..والخَزَرَةُ : انقلابُ الحدقةِ نحوَ اللحاظِ وهو أَقْبَحُ الحَوْلِ)). أنظر : لسان العرب، (4 : 236).  
(5) العين : (6 : 234) : ((وَشَطَرٌ بَصَرُهُ يَشْطُرُ شَطُوراً وَشَطَرًا وهو الذي كأنه ينظر إليك وإلى آخر)). أنظر : لسان العرب، (4 : 408).  
(6) العين : (6 : 231) : ((الشَّرَزُ : نظرٌ فيه إعراض، كَنَظَرِ المُعَاذِي المُبْغِضِ)). أنظر لسان العرب : (4 : 404).  
(7) العين : (6 : 272) : ((والشُّصُو من العينِ : مثلُ الشُّخُوصِ. شَصَا يَشُصُو : كأنه يَنْظُرُ إليك وإلى آخر)). أنظر : لسان العرب، (14 : 432).

وهذا لا يدلّ إلا على مهارة العربي في عصر ما قبل الإسلام في استعمال المفردات، كما يدل على دقة ملاحظته؛ بمعنى أن هذه الألفاظ لا تؤكد وجود معرفة طبية بالضرورة.

وبالتالي فإنها إذا دلت على وجود معرفة طبية فإن هذه المعرفة لم تأخذ شكل (العلم المدوّن) أو (العلم النظري) على حدّ تعبير المؤلفين الإغريق والعرب.

لكنّا نجد في كتاب العين أحياناً فقرات لا تثير الانتباه إلّا إذا كان الباحث مدقّقاً ومعنياً بمسألة (تاريخ المعرفة الطبية) وعرف دلالة وجود هذه الفقرات أهميتها الطبية، مثال على ذلك :

الشتر : ((انقلاب في جفن العين الأسفل قلما يكون خلقاً))<sup>(1)</sup>.

فالخليل هنا يسجل على لسان أحد الأعراب الذين أخذ عنهم أن هذا المرض (الشتر)، قد يكون خلقياً وقد ينجم عن أسباب أخرى. لكن الشكل الخلفي منه نادر : (قلما...)

وهذه ملاحظة مهمّة تشير صراحة إلى معرفة طبية.

مثال آخر : المرض المعروف (بالعشا) قد يكون شديداً يتظاهر ليلاً ونهاراً ويصل إلى حدود العمى، وقد يكون خفيفاً لا يتظاهر إلا على شكل (العمى الليلي). وقد تكون له أسباب خلقية، أو أسباب طارئة، والنوع الثاني قابل للشفاء.

وفي كتاب العين<sup>(2)</sup> إشارات إلى هذا كلّ. ((الأعشى : هو الذي لا يُبصر بالليل، وهو بالنهار بصير.)) ((وقد يكون الذي ساء بصره من غير عمى.))، ((وهو عَرَضٌ حادث))، ((ربما ذهب)).

(1) العين : (6 : 245) : ((الشتر : انقلاب في جفن العين الأسفل قلما يكون خلقاً)). أنظر : لسان العرب، (4 : 393 - 394).

(2) العين : (2 : 188).

وبالرغم من كل هذه الملاحظات التي نعدّها مهمة من وجهة نظر مؤرخي الطب، فقد يقول قائل : إنها دليل ذكاء البدوي، ومعرفته الفطرية، ودقة ملاحظته، وأن هذه المواهب يمكن أن نجدها عند غير الأطباء، فهي لا تؤكد وجود معلومات طبية نظرية.

لكن هذا المثال الذي نسوقه هنا لا يقبل الجدل — في رأينا — :  
العين (1) : ((وَالظَّفَرُ : جُلَيْدَةٌ تَغْشَى الْعَيْنَ، تَنْبُتُ مِنْ تَلْقَاءِ الْمَاقِي، وَرُبَّمَا قُطِعَتْ، وَإِنْ تَرَكْتَ غَشِيَتَ بَصَرَ الْعَيْنِ حَتَّى يَكِلَ)).  
هذه العبارات لا تقبل الجدل لأنها تشير إلى عمل جراحي. (وربما قُطِعَتْ).

العرب في جزيرتهم — إذن — قبل عصر الترجمة، وفي حدود ما نقله لنا الخليل، كانوا على معرفة ما بالطب، هل أخذوها من تراث الشرق القديم، أم من تراثهم الخاص ؟ هذا موضوع لا يزال ينتظر الباحثين.

وهنا نودّ أن نسوق مثلاً على وصول العلم النظري إلى العرب قبل عصر الترجمة، ومثالنا من العراق، ومصدر المعرفة فيه فارسي.

حينما ترجم العرب كلمة (فرانيطس) اليونانية كانت هذه الكلمة مفهومة عند الترجمة، ولها اسم معروف وشائع في العراق.

فرانيطس : (هو ورم أغشية الدماغ) باليونانية. ووصف الأطباء — الإغريق منهم والعرب — (2) للصور السريرية العديدة التي يتظاهر بها هذا

(1) م.س : (8 : 158).

(2) الحاوي، (1 : 363) : ((قاطيطريون الأولى : قال : الفرانيطس : ورم حار يكون في الدماغ وفي أغشيته))، [إـ : أبقراط].

— (1 : 370) : ((الأعضاء الأئمة : قال فرانيطس ورم حار يحدث في الدماغ من مرة صفراء ومعه حمى))، [إـ : جالينوس].

— (1 : 348) : (لي : وفرانيطس ينتقل إلى ...)، (لي : أي الرازي).

— (1 : 360) : (ابن سراجيون : الفرانيطس...).

المرض يشير إلى أنهم كانوا يصفون ما نسمّيه اليوم (التهاب الدماغ) أو (التهاب السحايا)، (أي ورم أغشية الدماغ) على حدّ تعبيرهم.

وقديماً قالوا الورم وعنوا به **الالتهاب** بلغة اليوم.

كيف ترجم العرب هذا المصطلح في عصر الترجمة ؟

قالوا : (هو السّرّسام) والسّرّ بالفارسية هو الرأس، والسام هو الورم <sup>(1)</sup>. أي أن هذا الاسم اليوناني تُرجمَ إلى سرسام، ولم يقولوا ورم الرأس <sup>(2)</sup>.

لو لم يكن المصطلح الفارسي معروفاً في بغداد في عصر الترجمة لما استعملوه.

وعليّنا أن نتساءل : كيف جاء هذا المصطلح إلى بغداد وصار مفهوماً عند العامة قبل عصر الترجمة ؟

ألا ينبغي عليّنا أن نفترض أن مصدر هذا المصطلح هو جنديسابور حيث المصطلح اليوناني معروف وكذلك الفارسي ؟

وفي مرحلة ثانية من مراحل تطور المصطلحات ميّز السريريون والترجمة حالتين من التهاب الدماغ وذلك للتفريق بين المرض المسمى فرانيطس، والمرض الآخر المسمى ليثرغوس فقالوا عن الأول السرسام الحار، وعن الثاني السرسام البارد <sup>(3)</sup>.

---

(1) معجم المعربات الفارسية، (ص98) : (سرسام : ورم في حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة. معرب مركب من (سرّ : رأس + سام : ورم. التهاب).

(2) بمعنى أنهم استعملوا مصطلحاً أعجمياً مفهوماً وشائعاً بين الناس (لإزالة عجمة مصطلح أعجمي). لقد استعمل إبراهيم بن مراد هذا التعبير حينما اشتغل على تفسير مصطلحات ديوسقوريدوس.

(3) الحاوي، (1 : 320) : ((العلامات : قال : ليثرغس شبه فرانيطس، ويفرق بينهما، يكون الوجع والتنفس والمجسة وشدة الحمى، فإن في ليثرغس الحرارة فيه ضعيفة والنفس صغير بطيء والنبيض مَوْجِيّ، وأصحاب ليثرغس ينحدرون نحو أرجلهم على فرشهم، وأصحاب فرانيطس يتصاعدون نحو رؤوسهم، وإذا رأيت فرانيطس قد غارت فيه العين ودام التغميض وسال الرّيق وأبطأ النبض فإنّ فرانيطس قد انتقل إلى ليثرغس)). وكتاب العلامات لجالينوس.

- (1 : 348) : ((لي : وفرا نيطس ينقل إلى ليثرغس وإلى الدق، فأما علامات انتقاله إلى ليثرغس...وانقاله إلى النقي...)) كلمة لي تشير دائماً إلى نسبة المقولة للمؤلف : الرازي.

- (1 : 349) : ((الثالثة : قال : السّرّسام الحار المسمى فرانيطس والبارد المسمى ليثرغس قبر المدة ذو خطر وخوف)).

- (1 : 377) : ((قال جالينوس : فرانيطس هو السرسام الحار وليثرغ السرسام البارد...)).

فالسّراسم ظلت كلمة مفهومة ومقبولة، لأنها تعربت. المرض الأول هو  
الالتهاب الحاد بعرف اليوم، والثاني هو الالتهاب المزمن.

نخلص إلى القول إنّ تاريخ عصر الترجمة يجب أن يُكتَبَ من جديد،  
وقبل ذلك ينبغي أن تُوجّه الجهود لمعرفة أمورٍ كثيرة لها أهمية في تاريخ  
الطب، كما في تاريخ الحضارة. وهذا العمل جزء مهم من أجل إعادة كتابة  
تاريخ العرب.

وقد آن الأوان أن نكتب تاريخنا بأنفسنا بعد أن قام الآخرون بكتابته.  
وعليّنا أن نتفهم الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون، لكي نجتنبها، وعليّنا أن  
نعرف الأسباب التي أدت إلى وقوع الأخطاء في كتابة التاريخ، عندنا كما في  
الغرب. وعليّنا أن لا نلوم الآخرين قبل أن نلوم أنفسنا.

صحيح أن العلم — والتاريخ جزء من العلم — تنهض به الأمم المتقدمة،  
ولذلك لم نتمكن حتى الآن من كتابة تاريخنا الحقيقي، لكنه آن الأوان أن نبدأ.

## المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقله وصححه امرؤ القيس بن الطحان (أوغست مولر)، ط1، المطبعة الوهبية (دون مكان الطبع)، 1882.
- ابن إسحاق، حنين، رسالة حنين بن إسحاق إلى علي بن يحيى المنجم : في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعمله وبعض ما لم يترجم، تحقيق بير غشترسر، أعاد نشرها عبد الرحمن بدوي في : دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت (دون سنة الطبع).
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، الحاوي في الطب، الجزء الثاني في أمراض العين، ط2، حيدر آباد الدكن، 1976.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم الغرياني، الجزء الثالث، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1967.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن، العين (كتاب العين)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980.
- اليعقوبي، ابن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، منشورات دار صادر، بيروت، (دون تاريخ الطبع).
- حافظ، شادية، السريان وتاريخ الطب، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1993.
- حبي، يوسف، المراكز السريانية الثقافية، إصدار خاص من مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1985.
- الحمارنة، نشأت، آراء ودراسات في تاريخ الطب، وزارة الصحة، دمشق، 2004.
- الحمارنة، نشأت، تاريخ أطباء العيون العرب، إصدار خاص من مجلة كحال، 3 أجزاء، دمشق، 2004.

- خورشيد، إبراهيم زكي وآخرون، (ترجمة)، دائرة المعارف الإسلامية، وزارة المعارف، القاهرة، (دون سنة الطبع).
- سزكين، فؤاد، العلوم والتقنية في العالم الإسلامي، المجلد الأول، فرنكفورت، 2007.
- سزكين، فؤاد، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرنكفورت، 1984.
- صليبا، جورج، الفكر العلمي العربي : نشأته وتطوره، (دون مكان الطبع)، 1998.
- قنواطي، جورج شحاته، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (دون سنة النشر).
- نينا، بيغوليفسكايا، ثقافة السريان في العصور الوسطى، ترجمة محمد خلف الجراد، دار العلم، موسكو، 1979.

